الغنيُّ والفقيرُ

صــورةُ كُلٍّ مِنْهُمــا، والصِّراع بينهما في أَدب جبران

سماح ادريس

لا يزعم هذا البحث تقديمَ نظريَّة جديدة أو رؤية ثانية لجبران مِن منطلَقٍ ماديّ. لكنَّه ــ أي البحث ــ يحاول تسليطَ الأضواء على العوامِلِ التاريخيَّة والطبقيَّة التي بلورت صورة الغني والفقير عند جبران، بل ــ قُلْ ــ صُوَرَهُمَا المتنقّلة. كما أنَّ البحث التالي لا يدَّعي «نَسْفاً» للنَّقْدِ الذي تَناول جبران على أساسٍ فكريّ عرفاني، بَيْدَ أنَّه يسعى إلى تَلَمُّس الأسباب الماديَّة التي استَنَدَ إليها فكر جبران العرفاني الصُّوفي.

ولد جبران سنة ١٨٨٣ في قرية بشرّي من والد التَزَمَ ضريبةَ الماعِز في تلك القرية والمنطقة المجاورة لها. لكنَّ مُلْتَزِم ضريبة الماعِزِ هذا سُرعانَ ما أُوقِفَ بتهمة اختلاس، فَفُرِضتْ عليه إقامةٌ جبريَّة في مركز قريبٍ من المحكمة، واحتُجِزَت أملاكُهُ... فسافَرَت «كاملة» أُم جبران سنة ١٨٩٤ إلى باريس للاستنجادِ بِنَسِيب لها كان على علاقةٍ بالسلطاتِ الفرنسيَّة، آمِلَةً بوساطةٍ لِفَكِّ الحجزِ عن الأملاك. فتمكنت من استعادَةِ بعضِ العقارات، لكنَّ تكاليفَ المحاكمة تَجَاوَزَت قيمَتَها! فَرُهِنَتْ، وبقي لعائلة جبران القليلُ من المال.

وكان نَفَرٌ غيرُ قليلٍ من مواطني بشرّي قد وَجَدَ أَنْوار الـمُغامَرَة والكسب تشعُّ برَّاقةً من هُناك، من أميركا. فسافَرَ الكثير منهم واستطاعَ بعضهم تأسيس مستقبلٍ اجتماعي زاهر... وقد جَذَبَ هذا الإشعاع كاملة، فقرَّرت الهجرةَ مع أولادها الأربعة سنة ١٨٩٤ إلى أميركا مُـختارةً «بوسطن»، المكانَ الأكثر تَرَكُّزاً واستقطاباً لمغتربي بشري.

في تلك المدينة «حيث تتعانَقُ نراجيلُ التنبكِ والأفيون، وتتراكبُ طاوِلاتِ النَّرْدِ على الأرصِفَةِ القَذِرَة»(١)، حَطَّت عائلة جبران رحَالها في شقَّة صغيرة منخفضة السقف مؤلفة من غُرفة ومطبخ وعليَّة. ومنذ ذلك اليوم، حملت كاملة «الكشَّة» تبيعُ أدوات للزينة وخِلافها، وبَدأت مريانا وسلطانة العملَ في خِدْمَة الآخرين. أما جبران، فقد دَخَلَ إلى مدرسة كوينسي الشعبيَّة المَجَّانِيَّة، ودَرَسَ إلى جانب زملائِهِ من الفقراء الإيرلنديين واليهود والصينيين والأميركيين. وفي خلال سنوات ثلاث، ادَّخَرَتْ العائلة شيئاً من المال أوفدت به جبران إلى بيروت ليَـدرسَ العربيَّـة والفرنسيَّة، فكانَ أكثر أفرادِ العائلة حظّاً!

وكان جبران يقضي العُطَلَ الصَّيفيَّة في بشري. وفي إحدى المرَّات تعرَّف على حلا الضَّاهِر، أخت حاكم المنطقة، وأَحَبَّها. فوقف أخو حلا بين أخته و«ابن ملتزم ضريبة الماعز»، وصار لقاء العاشقين في غابةٍ حول دير مار سركيس. اتَّسعت الطبيعةُ لتحضنَ المحرومين الصغيرين. لكنَّ رفض الأغنياء لجبران ولحبّه الجريح تركَ في قلبِهِ تصمِيمًا على الإِثْراء.. قالَ لِحَلاَ في لقاءٍ حار(٢): «أظُنُّكِ تؤثرين حياةَ القَصْرِ على حياةِ الكوخ، ولَسَوْفَ أبني لكِ قصراً هَهُنَا بعد أن أعودَ من أميركا». فأجابَتْهُ بِبَسَاطَة: «كُلُّ كوخٍ يُصْبِحُ قصراً متى عشنا فيه معاً!» كان جبران آنذاك في السادِسَةِ عشرة من عمره.

وتكون لجبران عودة أخرى إلى لبنان سنة ١٩٠٢، ولكن كدليلٍ وترجمانٍ لعائلةٍ أميركيَّة. إلاَّ أنَّه لا يلبث أن يطيَر إلى بوسطنَ إثر وفاة أخته سلطانة بالسِّلّ، وتتلاحقُ المصائِب عليه سنة ١٩٠٣ بِوَفَاةِ بطرس وأمّه. وماذا كانَ ميراث جبران من أخيه بطرس؟ دُكانٌ رازِحٌ تحت ٢٤ ألف دولار من الديون، وبضاعة بنصف هذه القيمة(٣). لهذا السبب، قرَّرت جوزيفين بريستون بيبودي عَدَمَ الزَّواج من «النَّبـيّ الفقير» رَغْـمَ حُبِّها لَهُ، مؤثِرَةً عليه مهندساً مثقفاً ميسوراً!

حتى صديقه (داي) الذي كانَ يعين جبران مادياً، فوجىء باحتراقِ محترفِهِ الذي كانَ يضـمّ ــ فيما يضـمّ ــ بعضَ رسوم جبران.

(١) جبر، جميل. جبران في حياتِهِ العاصفة ــ مؤسسة نوفل ــ بيروت ١٩٨١ (ص ٢٢).

(٢) عن حلا الضَّاهر، نقله جميل جبر في المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣) مذكرات ماري هاسكل، ٢٢ نيسان سنة ١٩١١.

وتشاء الصُّدفة أن يتعرَّف كاتبنا اللبناني على صديقةٍ ستجمعهما الأيام في رابطة رفقة طويلة. هذه الصديقة هي ماري هاسكل. لم تبخل ماري هاسكل بمدّ يد العون المعنويَّة والماديَّة له، بل دفعتْ له مئة دولار ثمن لوحتين، ووعدته بمنحِهِ ٧٥ دولاراً شهرياً على مدى سنتين... بل بلغ بها الأمر أن أرسلته على نَفَقَتِها إلى باريس لدراسة الرَّسم، فمكث هناك ثلاث سنوات.

عادَ إلى بوسطن، ثم انتقل إلى نيويورك فَسَكَنَ في محترف «ضيِّقٍ يُغمُّ على القَلْبِ» على حد تعبير ماري هاسكل، لا يتَّسِعُ لأكثر من زائرَيْن، استخدمه غُرْفَة نومٍ وغرفةَ استقبالٍ وغرفةَ طعامٍ ومطبخاً في آنٍ معاً! كانَ هذا عام ١٩١٢. بعدها بسنتين، أتمَّ جبران كتابَه «دمعة وابتسامة».

لِنُطْلِق على الفترة الزَّمنيَّة الممتدَّة بين عامي ١٨٨٣ و١٩١٤ اسم «المرحلة الأولى»، ولنحاولْ أن نستجلي في أدب جبران خلال هذه المرحلة صورة الغنيّ والفقير، موقفه حِيَال كُلٍّ منهما، وصورةَ الصِّراع بينهما.

□ **أدب المرحلة الأولى:**

ويبتدىء «بدمعة وابتسامة» (بدأت بالظهور منذ سنة ١٩٠٤ وانتهت سنة ١٩١٤)، ومن ثم ظهرت على التوالي «عرائس المروج» فـ«الأرواح المتمردة»، فـ«الأجنحة المتكسرة».

● «دمعة وابتسامة»:

في «مدينة الأموات» مقارنةٌ بين جنازة غنيٍّ قوي وجنازة فقيرٍ ضعيف. الأولى تجمع بين الفخامة والعظمة، ومحاطةٌ بالشعراء الرَّاثين والموسيقيين النافخين الأبواق، يصل الموكب إلى القبر وإذا بالجَدَث نفسه من الرُّخام المُهندس. أما جنازةُ الفقير فعبارة عن امرأةٍ ترتدي أطماراً بالية، وطفلٍ رضيعٍ تحمله، وكلبٍ أمين حزين يجري إلى جانبها حتى يصل «موكب» الفقير إلى الجَدث، فإذا هو حفرةٌ في زاوية... عندها يخاطب المؤلِّفُ نفسه قائلاً: ما دامت مدينة الأحياء ومدينةُ الأموات للأغنياء الأقوياء، فأين موطن الفقير يا رب؟ «وينظر نحو الغيوم المتلبِّدة المتلوِّنة أطرافها بذهبٍ من أشعَّة الشمس الجميلة، ويسمع صوتاً في داخله يقول: هناك[1]».

وهناك يعني الأبديَّة أو المُطلق. وهذه الفكرة تتردَّد في مقطوعةٍ أُخرى بعنوان «منيَّتان»[2]. الموت إزاء غني قوي، والموت إزاء فقير ضعيف. الأوَّل يستفيق مذعوراً عندما يُلامس الموتُ جبينه ويصرخ: «أُغرب عني ولا تُرِني أظافرَكَ الجارحة وشعرَك المسدول كالأفاعي...»، ولكنَّه لا يلبث أن يحاول رشوة الموت تارةً بالفضَّة والذهب وطوراً بجوارٍ له حسان، تارةً بأرواحِ عبيده وطوراً تبلغ به أنانيته حَدَّ أن يفتدي ابنَهُ به!! إلاَّ أن الموت لا يأبه له، وحينئذٍ «وَضَع الموتُ يَدَهُ على فم عبد الحياة الترابيَّة وأَخَذَ حقيقتَه، وأعطاه للهواء».

ثم يبلغ الموت بيت الفقير. ولمّا يراه هذا، يجثو على ركبتيه ويرفَعُ ذراعيه نحوه ويناجيه: «هأنذا أيها الموتُ الجميل، اقتبل نفسي يا حقيقةَ أحلامي وموضوعَ آمالي! ضُمَّني يا حبيب نفسي فأنت رحوم. لا تتركني ههنا. أنتَ رسولُ الآلهة، أنتَ يمين الحق. فلا تتخلَّ عني. كَمْ طَلَبْتُكَ! ولم أَجدْكَ! وكم نادَيْتُك ولم تَسْمَعْ! قد سمعتني الآن فلا تُقابِل شغفي بالصُّدود. عانق نفسي يا حبيبي الموت!»... فيأخُذُ الموت حقيقة الفقير بلُطف ويضعها تحت جناحيه، ويطير هامساً في الهواء: «لن يرجع إلى الأبدية إلاَّ من جاء من الأبدية!»[1].

في المقطوعتين المذكورتين، نجد الفقراء يسمون عن الأغنياء من ناحيةٍ متيافيزيقيَّة! أي أن أصلَ الفقير وطبيعته أسمى من أصلِ الغني وطبيعته. فالأوَّل روحي الأصل، والثاني تُرابيُّه. وعليه، فإنَّ الموتَ مرحَّب به عند الفقير لأنَّه سينقُلُهُ إلى «هناك»، إلى الأبديَّة التي منها وُلِدَ وإليها يرجع، بخلاف الغني الذي سيعودُ إلى أصله الترابي، أي إلى ما «دون هُنا».

وفكرةُ خُلودِ الفقير هذه نراها من جديد في مقطوعتي «جمال الموت» و«يا خليلي الفقير». في الأولى، صارَ الموتُ السعادةَ القصوى: «لا تندبوني يا بني أُمِّي، بل أنشِدوا أغنية الشباب والغبطة...» ولتسمعوا «صدى نغمة الأبديَّة متسارعةً مع أنفاسي (...) ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصَّات، بل أغمضوا عيونكم وتروني بينكم الآن، وغداً، وبعدَ غد![2]». وفي الثانية، يخاطب جبران أحبَّاءه الضعفاء «شهداء الشرائع الإنسانيَّة» ويعزّيهم لأنه «من وراء المادة، من وراء الغيوم، من وراء الأثير، من وراء كُلِّ شيء، قوَّة هي كُلُّ عدلٍ وكُلُّ شفقةٍ وكلُّ حنوٍ وكُلُّ محبَّة... أنتم مثلُ أزهارٍ نبتت في الظِّلّ. سوف تمرُّ نسيماتٌ لطيفة وتحمل بذوركم إلى نور الشمس، فتحيَوْن هُناك حياةٍ جميلةٍ...»[3]. حتى الطفل الفقير غير الغني: فالثاني حالما يشبُّ سيتحكَّمُ برقابِ العباد، أما الفقير فإنه سيترك «عالم الأرواح والملائكةَ والفضاءَ الواسع» ليحيا حياة الشقاء والمذلَّة[4].

---

(١) المجموعة العربية، ص ٢٥١.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٧.

(١) المجموعة العربية، ص ٣٠٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٧.
(٣) المجموعة العربية، ص ٢٨١.
(٤) «طفلان»، المجموعة العربية، ص ٢٨٥.

بعدَ «الموقف الميتافيزيقي» الذي اتخذه جبران من كُلّ «من الفقير والغني، نعثر في مجموعة «دمعة وابتسامة» على موقفين آخرين. ففي مقطوعة «الأمس واليوم»[1]، يتحسَّرُ غني على أيّام ما قبل الاغتناء: «كُنْتُ بالأمس أرْعى الغنم بين تلك الروابي المخضرَّة، وَأَفْرَحُ بالحياة، وأنفخ في شبابتي معلناً غبطتي، وها أنا اليومَ أسيرُ المطامع، يقودُني المالُ إلى المال، والمال إلى الانهماك، والانهماكُ إلى الشقاء. كنتُ كالعصفورِ مُغَرِّداً وكالفراش متنقِّلاً، وها أنا سجينُ عادات الاجتماع: أتصنَّع بملابسي وعلى مائدتي وبِكُلِّ أعمالي من أجلِ إرضاء البشرِ وشرائعهم...

«أين السهولُ الواسعة؟ أينَ الهواءُ النَّقي؟ أين مجدُ الطَّبيعة؟ أين ألوهيَّتي؟! فقد ضيَّعت كُلَّ ذلك ولم يبق لي غير ذهبٍ أحبُّه فيستهزىء بي وعبيدٍ أكثرتهم فقلَّ سروري، وصَرْحٍ رفعتُهُ ليهدم غبطتي».

من البديهي أنّنا إزاء موقف رومنطيقي روسويّ. فالغني، يمثِّلُ المدنيَّة وما يتبعها من تهافت على الكسب، ومن قيودٍ على حُرِّية الإنسان... أما حالة الفقر فهي عكس الشقاء لأنها الراحة الروحيَّة، كيف لا والفقير يختلي بأُمِّه الطبيعة، مصدرِ كُلِّ خيرٍ وجمال؟! ولنتابع ما يقولُه الغنيُّ الحزين:

«كنت وابنة البدوِ نسير، والعفافُ ثالثُنا، والحبُّ نديمُنا، والقَمَرُ رفيقُنا. واليوم، أصبحتُ بين اللواتي يمشين ممدوداتِ الأعناق، الشارياتِ الحسن بالسلاسل والمناطق، البائعاتِ الوصل بالأساور والخواتم».

نحنُ الآن أمام موقفٍ من نوعٍ جديد، موقف أخلاقي: ففيما تمتازُ حياةُ الفقير بالعفَّة والإخلاص والحب الرَّزين، تتَّسِمُ حياةُ الغنيّ بالخُيَلاء والماديَّة والتَّعهُّر!

ويتأفَّف صاحبُنا قائلاً: «بالأمسِ كنتُ غنياً بسعادتي، واليومَ أصبحتُ فقيراً بمالي».

إلاَّ أن جبران يتركُ في النهاية للغني منفذاً واحداً لخلاصِ روحه، وهو أن يساويَ نفسَه بالفقير معنويّاً وماديّاً:

«في تلك الدقيقة، وقَف أمام الغنيّ فقيرٌ وَمَدَّ يَدَهُ متسوِّلاً فاقتربَ من المستعطي وقَبَّلَه قُبْلَة المحبَّة والمساواة، وملأ يده ذهباً، وقال والرأفةَ تسيلُ من كلماته: خُذْ يا أخي، الآن، وعُدْ غداً مع أترابك واسترجعوا أموالكم[2]... فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بُعَيْد المَطر وراحَ مُسرعاً».

سنجد فيما بعد، وخاصةً في «النبيّ»، أنَّ العطاء والمحبَّة سيكونان السبيل الذي يسلكه جبران سعياً وراء المصالحة مع المجتمع، ومع الغني في هذا المجتمع.

وجبران يتَّخذ موقفاً رابعاً من الغني والفقير، نعثُرُ عليه بين سطور «يا خليلي الفقير» و«صوت الشاعر». في الأولى يؤكِّد أنَّ الجندي قد أجبرته «شرائع البشر الظالمة على أن يترك رفيقه وصغاره ويذهبَ إلى ساحة الموت من أجلِ طمعٍ يدعونه الواجب...». وفي الثانية، يخاطب جبران جنديَّ الأمَّة المستعمِرة طارحاً عليه الأسئلة التالية: «أنت أخي وأنا أُحبُّك، لماذا إذن تخاصمني؟ لماذا تأتي بلادي وتحاول إخضاعي إرضاءً لأئمةٍ يطلبونَ المجْدَ بقولك والمسرَّة بمتاعبك؟ لماذا تترك رفيقتك وصغارك متَّبعاً الموتَ إلى أرضٍ بعيدة من أجل قوَّادٍ يبتغون ابتياعَ المعالي بدمائك والشَّرفَ الرفيع بأحزانِ والدتك؟

في المقطوعتين التي تُكَمِّل واحدتها الأخرى، نعثر على بداية تفكير علمي واضح، وإن غشته مسحة أدبية إنسانية رقيقة. الغنيّ يستَغِلُّ قيم المجتمع كالواجب فيزجُّ بجُنده دفاعاً عن هدفٍ «مزعوم» بينما الهدفُ الحقيقي من وراء فعلته هذه الطمع والمنزلة الأفضل... كذلك يفعل الغنيُّ الحاكم في الأمم المستعمرة: يُبرِّر الاستعمار بضروراتٍ «قوميَّة» يُضَلِّل بها الجنديَّ الفقير... لا ندَّعي. بالطبع، أنَّ جبران دعا إلى الوحدة «الأمميَّة» بين مستَغِلّي العالم، ولكنَّه تجاوَزَ على الأقل الحواجز القوميَّة المصطنعة بين «أدوات» الاستعمار (أي الجنود) والمُسْتَعْمَرين.

يبقى أخيراً موقف جبراني شبه ثابت من الفقير هو موقف الشفقة. فاسمع ما تقوله الأرملة في صلاتها:

«أَشفقْ يا ربُّ على الفقراء واحْمِهِم من قساوة البردِ القارس واسْتُرْ جسومَهم العارية بيدك (...) أُرْفُقْ يا رب بالجائعين الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل المظلوم (...) ومُدَّ يا ربُّ يَدَكَ إلى قلبِ الغني وافتح بصيرتَهُ ليرى فاقَةَ الضعفاء المظلومين...»[1].

أخيراً، بالنسبة لنضال الفقير ضدَّ الغني المستغِلّ، لا نجد هذه الفكرة واضحةً في «دمعة وابتسامة» وإنْ كانت مبثوثةً في أرجاءِ الكتاب، بل يغلب موقف الاستسلام وتقبُّل الهزيمة. وقد يكونُ السبب في ذلك ما ذهب إليه الدكتور حاوي من أنَّ هذا الكتاب هدَفَ «إلى الوصول إلى استنتاجٍ عام أو إلى مغزى من طريق ملاحظةٍ عامةٍ للحياة، أو لشخصيَّاتٍ عامة فيها، دون أيِّ تحديدٍ لزمانٍ أو مكان»[2]، أي دون الاهتمام بتطبيق هذه المبادىء على

---

(١) المجموعة العربية، ص ٢٦٦.

(٢) هذه الجملة لافتة للنَّظر... فكأنَّ جبران يقول: إنَّما مالُ الغنيّ هو للفقير!

(١) المجموعة العربية، الأرملة وابنتها، ص ٢٧٠.

(٢) خليل حاوي في جبران خ. جبران: إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره ــ دار العلم للملايين.

أوضاع معيَّنة في عصره وبلده، على نحو ما سيفعل في عرائس المروج، والأرواح المتمرّدة، والأجنحة المتكسِّرة.

«عرائس المروج» (١٩٠٦)

ستكون الشخصيات المحبَّبة إلى قلوبنا، في هذه المجموعة، فقيرة؛ وسيكون موقفها الاستسلام كذلك، كما سنرى في مقطوعتي مرتا البانية، ويوحنا المجنون.

أوَّل ما يستلفتنا في مقطوعة مرتا البانية أنها جاءت من صميم حياة جبران وفي أشد حالاته عَوَزاً (سنة ١٨٩٨)[١]، وثاني ما يستوقفنا هو عودة الموقفين الأخلاقي والرومنطيقي في نظرة جبران إلى الفقير، ولكن على شيء من التداخل. يقول جبران: «قد سرنا مع تيَّار المدنيَّة الحديثة البسيطة المملوءة طُهراً ونقاوةً...» ثم يقول: «... تلك الحياة التي إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمةً في الربيع، مثقلةً في الصيف، مستغلَّة في الخريف، مرتاحةً في الشتاء، متشبهةً بأُمِّنا الطبيعة في كُلِّ أدوارها...» ثم يعود إلى موقفه الأخلاقي الأوَّل: «... نحنُ أكثر من القرويين مالاً، وهم أشرفُ منّا نفوساً (...) نحنُ عبيد مطامعنا وهم أبناء قناعتهم»[٢].

الآن ماذا عن مرتا؟ يتيمةٌ وُلدت، في بيت جارٍ فقير يعيشُ مع رفيقته وصغاره من بذورِ الأرض وثمارها. غرَّر بها سيِّدٌ «عليه ملامح الترف والكياسة». وجاءَ بها إلى بيتٍ جميلٍ منفرد، ثم أتى «بالملابس الحريريَّة والعطور الزَّكيَّة والمآكل اللذيذة والمشارب الطيِّبة»، حتى إذا ما «أشبع شهواته من جَسَدها» تَرَكها لأصدقاء له يبتاعون جَسَدها، وترك لها صبيّاً يرتدي أطماراً باليةً ويبيع الزهور، وراء نظراته المحزنة «قلبٌ صغيرٌ يستر فصلاً من مأساة الفقراء الموجعة».

وهناك، في تلك الأزقَّة القذرة «حيثُ يختمر الهواءُ بأنفاس الموت»، تمدَّدت مرتا البانية على سرير حقير، وهي تحتضر.

نحن إذن نواجه مأساة كـ«بؤساء» هوغو لا يسعنا معها إلَّا أن نتعاطف مع مرتا وطفلها، وأن نتميز غضباً نحو السيد الثري، اللاخلاقي، اللاإنساني، الشهواني، الشرير. وبالطبع، لا يترك جبران موقفاً ذهبياً كهذا دون أن يُطل برأسِه، فَيُعَلِّقُ بعد زيارته لمرتا:

«أنت مظلومةٌ يا مرتا، وظالمك ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة... إيه يا مرتا، أنت زهرةٌ مسحوقةٌ تحت أقدام الحيوان المختبىء في الهياكل البشرية. قد داستك تلك النعالُ بقسوة، لكنَّها لم تخفِ عطرَك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتنهدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة... تعزّي يا مرتا بكونك زهرةً مسحوقة، ولست قدماً ساحقة!».

أخيراً، واضحٌ جداً موقف الاستسلام ذلك الذي تقفه مرتا، وعلى كُلِّ حال جبران نفسُه لا يريدُ منها إلَّا ذلك: أن تتعزَّى بكونها مسحوقةً لا ساحقة، وأن تنتظر حكم السماء العادل! أين هذا الموقف من موقف خليل الكافر ــ كما سنرى بعد قليل ــ الذي يدعو إلى النضال من أجل «مَلكوت الأرض»؟

أما يوحنَّا، فشأنه «شأن جميع المزارعين الفقراء» لا يتجاوز قوته «الخبز المعجون بعرق الجبين، والثمار المبتاعة بدم القلب». لا يملكُ «بارةً واحدةً» يفتدي بها عجوله التي ارتعت زرعَ الدير بَيْنا هو يتأمل في معاني الكتاب المقدَّس. وإذ يرفض رئيس دير اليشاع، وهو دير غنيّ، أن يردَّ له عجلَه ما لم يبعْ حقلَه، يقاومه يوحنا بتعاليم المسيح:

«هل يبيعُ الفقير حقلَه، منبتَ رزقه ومواردَ حياته، ليضيفَ ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالفضَّة والذهب؟ أمن العدلِ أن يزداد الفقير فقراً ويموتَ المسكين جوعاً كيما يغفر اليشاع العظيم ذنوبَ بهائمَ جائعة؟»

ثم يستطرد يوحنا إلى تبيان التفاوت الطبقي الصارخ في البلدة: «انظروا يا قُساةَ القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة، ففي منازلها يتلوَّى المرضى، وفي حبوسها تفنى أيَّام البائسين، وأمام أبوابها يتضرَّع المتسوّلون، وعلى طُرُقِها ينامُ الغرباء. وأنتم ههُنا تتمتعون براحة التواني والكسل، وتتلذذون بثمار الحقول وخمورِ الكروم».

بعد هذه الموعظة الإنجيلية، يقبض الرهبان على يوحنا ويودعونه سجناً مظلمًا ولا يخرج منه حتى تفتديه أمه بقلادة فضية تُلقيها بين أيديهم!!

وفي عيد الفصح، يجتمع الناس فيرى فيهم يوحنا طبقتين: «عظمة» ترتدي القطيفة والأطالس، وتعاسةً تلتفُّ بالأطمار البالية؛ «فئة قوية غنية تمثِّل الدين بالتنغيم والتعزيم، وشعباً ضعيفاً محتقراً يفرح سراً بقيامة يسوع...» فيشتعل حماساً ويخاطب يسوع طالباً منه أن يُعين «مُختاريه الفقراء» لأن الجالسين باسمه على العروش لن يسمعوا صُراخَهم... وإلَّا فليرسِل الموتَ «راحة» الفقراء.

---

(١) يذكر يوسف الحويك، صديق جبران في شبابِهِ الأول، أنَّ جبران رأى طفلاً رثَّ الملابس يبيع أزهاراً منه، فاشترى زهرة وقدَّمها ليوسف الحويك، وسألَهُ عن عائلَتِهِ، فأخبره عن بؤس أُمِّه فمضى يزورها في كوخها الفقير، وأوحت إليه هذه الزيارة قصَّة «مرتا البانية».

(٢) المجموعة العربية، ص ٥٩.

عندها يقبض عليه الكهنة ويسلمونه للشرطة فيقتادونه إلى المحاكم، لكنَّه يلبَثُ صامتاً لأنه تذكر أن يسوع كان سكوتاً أمام مضطهديه.

في هذه المقطوعة، يعمد جبران إلى أُسلوب المقابلة بين الغني والفقير، والمقابلة بينهما لن تقتصر هذه المرة على الجانب المادي الظاهر (ملابس، أواني، عروش...)، أو الجانب الأخلاقي (حيث نرى الكاهن يقبل قلادة فضيَّة ثمن الإفراج عن يوحنا)، وإنَّما يتعدَّاهما إلى جانبٍ ديني: فإذا دين الكاهن الغني تنغيم وتعزيم أي قشور، بينما يمثّل الفقراء الدين الحقيقي حتى ليسميَهم جبران على لسان يوحنا «مختاري يسوع» وليلقّبَ يسوع نفسه بـ «الراعي الصالح».

ويوحنَّا الفقير نفسه كانَ صورةً أخرى عن يسوع، في إيمانِهِ الصادق، وفي دفاعه عن البائسين، وأخيراً في مواجهته مصيره لأنهما يعرفان جيداً أنَّ الظالمين مهما فعلوا بهما، فإنَّ آثار الجريمة «تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس» ــ تماماً كما لم تستطع النعالُ القاسية أن «تُخفي عطرَ» مرتا البانية!

«الأرواح المتمرّدة» (١٩٠٨)

سنُلاحِظ أنَّ **الأرواح المتمردة** ــ جنباً إلى جنبٍ مع **الأجنحة المتكسِّرة** و**عرائس المروج** ــ ستكون شديدَةَ اللُّصوق بالواقع الاجتماعي الاقتصادي اللبناني آنذاك. فهذه المجموعات ــ وبخاصة تلك التي بين أيدينا الآن أي **الأرواح** ــ تهدف إلى الإصلاح، وليس إلى وضعِ مبادىء أساسيَّة في العقيدة الجبرانيَّة فحسب، وبكلمةٍ أخرى، إنَّها تهدف إلى **تطبيق** هذه المبادىء على الواقع السوري، خِلافاً لِما وَجَدْناه في **دمعة وابتسامة**. ولذا، فإنَّنا سنرى أنَّ هذا الواقع سوف يلعبُ دوراً رئيساً في موقف جبران من بَطَلَيْنا (الغني والفقير) وصراعهما. فكيف كانَ الوضعُ الاقتصادي الاجتماعي في جبل لبنان بين أواخِرِ القرنِ التاسع عشر وأوائلِ القرنِ الحالي؟

□ **الوضع الاقتصادي ــ الاجتماعي في جبل لبنان:**

تميَّزَ نِظامُ **الزِّراعَةِ** والأرض العثماني الذي خَضَع له المجتمع اللبناني بحقيقة ثابتَة: هي أنَّ الأرضَ تعودُ للدولة. لكنَّ هذا لم يَسْرِ إلَّا طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر. فالحالُ أنَّه، مع الزَّمن، قامت عائلاتٌ قَويَّة في جبل لبنان بمسؤولية جباية الضريبة للدولة على مَساحَةٍ معيَّنة من الأرض سُمِّيَت «مقاطعة». وصار أعضاءُ هذه العائلات «مقاطعجيين» ذوي ألقاب شرفٍ رفيعة (شيخ، أمير...). وما لبثت طموحات هؤلاءنحو الاستقلال بمقاطعاتهم أن قويت، فاشتدت هيمنتهم المباشرة على الفلَّاحين واستأثروا حتى بالأراضي القليلة التي استغلها هؤلاء بصورة فرديَّة[1].

وفي الواقع، كان المشايخ والأمراءُ والإكليروس الماروني يستأثرون باستثمار ثُلُثَيْ أراضي الجبل بالزراعة، عدا حقِّهم في استثمار الأرضِ المُشاع. أما الثلث الآخر فيستثمره فلاحون متوسطو الحال، بينما لم تكن أكثريَّة السُّكان لَتَمْلِك أكثر من قوةِ عملهم، وهم يمضون ثلاثةَ أرباع وقتهم بانتظار استخدامهم. هذه الطبقة الأكثر فقراً وعدداً كانت تُصَدِّر الرهبان (كخليل الكافر) والحطَّابين والحرفيين. وباختصار، نستطيع أن نلخص العلاقة القائمة بين الفلاحين من جهة والأمراء والمشايخ من جهة ثانية على أساس القاعدة التالية:

من يزرع لا يمْلِك، ومن يملك لا يزرع[2]!

ورغم أن الفلَّاح كان يتحمَّل وحده وطيلة السنة مسؤولية إعداد الأرض وفلاحتها، ويقوم مع أفراد عائلته بالعمل الضروري لإنتاج السلعة وتحضيرها للتسويق، كانت حُصَّتُهُ من الأرباح لا تتعدَّى النصف. وحتى حصَّته هذه كانت تخضع لاقتطاعات شتى: ففي حال حصول نقصٍ في قيمة المحصول عمَّا كان مُقَدَّراً في الأصل، كانَ على الفلَّاح أن يُعَوِّض عن ذلك لصاحب الأرض! ثم تأتي شروط أخرى تكبِّل الفلاح وترهقه: فهو المسؤول عن دفع ضريبة «الميري» عن أرض «المقاطعجي» ومنه كانت تُقتطع أيضاً ٥٪ من قيمة محصلات الضرائب لمصلحة «المقاطعجي» المسؤول عن جمعها بصفة «أجرة جهود استيفاء وجباية». وحتى أجرة محل الناطور كان يدفعها الفلَّاحون أنفسهم.

وما إنْ بدأ التغلغل الرأسمالي الأوروبي في لبنان، حتى قوي تجَّار بيروت ولعبوا دورَ وسطاء بين المنتجين من جهة (الشيخ والفلَّاح) والمستوردين من جهة أُخرى. إذن، وقَع الشيخ والفلَّاح معاً في علاقةٍ تبعيَّة جديدة: التبعيَّة لرأس المال الأجنبي الذي يمثِّله التاجر في المدينة... فاضطرَّ الشيخ إلى التحالف مع التاجر والتشبُّث بأملاكه وممارسة مزيدٍ من سياسة تكبيل الفلَّاح واستنزاف قوة عمله وقهره اجتماعياً. وتؤكد دراسة وردت في مؤلف «سيميليانسكايا» حول «حركات الفلَّاحين في لبنان» أنّ دخل عائلة فلاحية في نهاية القرن التاسع عشر تعمل ٤ أشهر في السنة كان ١٣٠٠ قرشٍ. وكانت النفقات مع الضرائب تبلغ

(١) راجع مؤلف سيميليانسكايا حول **حركات الفلاحين** في لبنان.
(٢) المصدر السابق.

١٥٧٥ قرشاً، أي العجز كان ٢٧٥ قرشاً!! وبالعكس، كانَ دخل الإقطاعي التاجر في المدينة يتخطى المليون قرش!!

انطلاقاً من هذا الوضع الاقتصادي الاجتماعي الذي حَكَمَ جبل لبنان في الفترة الزمنية الممتدة بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، يمكننا فهمُ الصورة التي رَسَمَها جبران للغنيّ والفقير في **الأرواح المتمردة**... كذلك نفهم لماذا صرخت القبور، ولماذا كفر خليل!

ففي «صراخ القبور» نحن أمام مجلس عدالة عمياء: أميرٌ يحاكم «مجرمين» ثلاثة أحدهم قتل قائد الأمير عندما أتى هذا ليجمعَ الجزية من حقل رجلٍ فقير. والسببُ أنَّ القائد استحسن ابنة الفقير ففرضَ ضريبةً يعرف أنَّه يعجز عن دفعها (وقد علمنا للتوّ أنَّ الضريبة «العادية» وبحد ذاتها كانت تقصم ظهر الفلاَّح) لكي يقتاد الفتاة ــ بدلاً من الذهب ــ إلى قصر الأمير. عندها يهبّ خطيب الفتاة الشاب وتدور معركةٌ بينهما تنتهي بمقتل القائد.

وأما «المجرم الثاني»[1] فكهلٌ ضعيف، ثوبُهُ بالٍ، نظراته موجعةٌ تنبعث منها خيالات البؤس والفقر والتعاسة. هو أبٌ لأطفالٍ خمسة «يتضوَّرون جوعاً، أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيعٌ لم يُفْطَم. خَدَمَ الدير بعرق جبينه وزرع بساتينه مُذ كان فتى ولم يحصل من الرهبان إلا على رغيفٍ تتقاسمه العائلة عند المساء ولا تبقي منه لقمةً إلى الصباح». ولما ضعُفَ أبعدوه وطلبوا منه أبناءه عندما يشبُّون، فاسترحمهم باسم يسوع فلم يرحموه، فذهب يطلب عملاً في المدينة فَطُرِدَ لأن «سكان القصور لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء»، ثم جَلَسَ على حافَّة الطريق يستعطي فلم يُحْسَنْ إليه. وفي ليلة صار الأطفالُ فيها «يتلوَوْن جوعاً على التراب، والرَّضيع بينهم يمُصُّ ثديي أُمِّه ولا يجدُ لبناً»، خَرَجَ الرَّجُلُ من منزلِهِ ليلاً ودخل قبواً من أقبية الدير «حيث يُخَزَّنُ الرهبان غَلَّة الحقول وخمرَ الكروم». وحمل زَنْبيلاً من الدقيق على ظهره فاستيقظ القسس وسلموه للجُند قائلين: «هو لصٌّ شرير جاء ليسرق آنيةَ الدير الذهبيَّة!...».

... وهكذا يتحوَّل مجرمو العدالة الأميريَّة إلى أبطال العدالة الجبرانية! فالمجرم الأول خطيبُ فتاة معدمة يُدافع عن شَرَفها، والمجرم الثاني أبٌ اضطرَّه جوع أطفاله لأن يسرق من «خزَّان الغلَّة» في الدير قليلاً من الدقيق... ويتحول بالتالي كُلُّ أعداء الفقير إلى مجرمين: من الأمير فالقائد وانتهاءً بالكُهَّان. والكهان، هؤلاء يبدون لنا في هذه القصة على غاية الشر: يبدون لنا لا إنسانيين، لا يرحمون من خَدَمهم طيلة شبابه، وكذبة يلصقون تهمة سرقةِ ذهبٍ بالكهل المسكين، بالاختصار: رهبان «يحوّلون تعاليم النَّاصري إلى سيوف يقطعون بها أجساد المساكين الضعفاء»[1].

في الختام، واضحٌ أنَّ الفلاح الفقير هنا هو صورةٌ عن الفلاح الذي تحدَّثنا عنه في تحليلنا للبُنْيَة الاقتصادية في أواخر القرن التاسع عشر ــ أوائل القرن العشرين.

في «وردة الهاني» يعودُ الموقف الأخلاقي إلى الواجهة مصطحباً معه الموقف الرومنطيقي من الفقير والغني. ففي القصور الفخمة «تسكُنُ الخيانة بجانبِ الرِّياء»، وتحت سقوفها المطليَّة بالذهب المذوَّب يقيمُ الكذب بجانب التَّصنُّع. وأما البنايات التي قد تمثِّلُ لك السعادة والمجد «فقبورٌ مكلَّسةٌ يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كُحل العيون واحمرار الشفاه، وتنحجب في زواياه أنانيَّة الرجل وحيوانيَّتُهُ بلمعانِ الفضَّة والذَّهب...» وإذا استمررنا في عد مثالب الغني لأحصينا عدا الخيانة والرياء والتصنّع والكذب والمكر والأنانية، المثالبَ التالية: البخل، الفساد الأخلاقي، الخيانة الزوجية، إحتقار الزوجة كما لو كانت جرَّة خمر فارغة إلخ... باختصار، لو عَلِمَ الفقير ما في منازل الأغنياء وقلوبهم لكانَ هو المبادر إلى الإشفاق عليهم!

ولذا قرَّرت وردة أن تخسر صداقة الأغنياء «لتربح نفسها». فحوَّلت عَيْنَيْها نحو النور حيث «الإخلاص والحق والعدل». وسكنت مع فتى أحبَّته في بيتٍ «خال من الرياش ولكن مملوء من الروح». إنه بيتٌ، يقولُ المؤلف، حقير لكنَّ «العواطف جعلته هيكلاً للحُبِّ والوفاق».

هنا، تعودُ بنا قصة وردة الهاني إلى ماضي جبران العاطفي الذي حَطَّمَهُ الفقر والحاجة. فَنَحْنُ شبهُ مضطرين لأن نلاحظ أنَّ ما قد نطقت به «وردة» للتوّ (وما تبنَّاه المؤلف في تعقيبه على قولها) إنَّما هو مُنتَزَعٌ من فم حلا الضَّاهر، رفيقة جبران الأولى، حين قالت له ردّاً على ما وَعَدَها به من أنَّه سيبني لها قصراً في غابةٍ حول دير مار سركيس:

«كُلُّ كوخٍ يصبح قصراً متى عشنا فيه معاً!».

قبل الانتقال إلى قصة «خليل الكافر» في مجموعة **الأرواح**، يتبيَّن لنا من «صراخ القبور» و«وردة الهاني» ترابُط الوضعين المادي الذاتي لجبران، والمادي الاجتماعي الاقتصادي لفقراء جبل لبنان. وهو ما سيتَّضح أكثر في مقطوعة «خليل الكافر».

تكادُ صورة الغني والفقير في هذه المقطوعة أن تكون صورةً طبق الأصل عن واقعهما إبَّان تلك الفترة التي عرضنا لها.

---

(١) وهو في القصة «المجرم الثالث»، إلا أنَّ المجرم الثاني لا علاقة له واضحة ببحثنا.

(١) المجموعة العربية، ص ١٠٠.

فالفلّاحون «يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها ولا يحصلون لقاء أتعابهم إلّا على جزء من الغلّة لا يكاد ينقذهم من أظافر الجوع». وكانت الحقول التي يحرثونها والأكواخ التي يسكنونها «ملك الشيخ عباس بالوراثة مثلما ورثوا الفقر والتعاسة عن آبائهم وجدودهم».

وخليل يتيم، مُذ كانَ في السابعة في عمره، أخذه كاهن القرية إلى دير قزحيًا واستغلّه في رعاية البقر، ثم صَيَّره راهباً ودعاه «الأخ مبارك». ولكنَّ عاطفة الأُخُوَّة من الرهبان براء، إذ يتضح لنا أنَّ الدير ما هو إلّا صورة مصغَّرة عن المجتمع بِكُلِّ أشكال التفاوت الاجتماعي التي يشهدها: «كانوا يتمتعون باللحوم والمآكل الشهيَّة ويطعمونني الخبز اليابس، والبقول المجفَّفة ويتلذَّذون بالخمور والمشارب الطَّيِّبة ويسقونني الماء ممزوجاً بالدموع، ويضطجعون على الأسرَّة الناعمة، وينومونني على فراشٍ حجري في غرفة مظلمةٍ باردة بجانب زرائب الخنازير».

حتى هذه اللحظة، جبران لم يأتِ بجديد على صورة يوحنّا «المجنون» العالقة في أذهاننا، أو على صورة «المجرم الثالث» في «صُراخ القبور». في الحالات جميعها نرانا نتألّم لحال الفقير ونَسْخَطُ على الغنيّ الظالم.

لكنَّ الواقع المستجد هو عزم خليل على **النضال** من أجل تحسين وضعه ووضع إخوتِهِ الفقراء لأنّ «من لا يُشاهِد ملكوت السموات في هذه الحياة، فلن يراه في الحياة الآتية».

لم تعد «السماء مصدرُ العدل والرحمة» ــ كما شاهدنا مع مرتا البانية ــ خليقةً إلا لمن يُثبت حقه في ساح الحياة... وعليه يتشجع خليل ويهاجم الرهبان مستغلي خيرات الفقراء والمساكين، سالبي غلّة أرضهم، آخذي أموالهم، شاربي عصير كرومهم، آكلي لحوم مواشيهم. فيُطرد من الدير في ليلةٍ عاصفة ويكاد أن يلاقي حتفه لولا نجدة راحيل ومريم ابنتها.

وراحيل ومريم كلاهما من الفقراء أيضاً. وراحيل مثل «جميع الأرامل الفقيرات تعيشُ بالاجتهاد والعمل» مخافة الموت. وهي تعمل في جمع السنابل وغزل الصوف لقاء دريهمات قليلة.

يتّفق الشيخ عباس والخوري الياس على طرد خليل من القريةحتى لا يفسد الناس بأفكاره «الملحدة»، وبعدما أيْقَنا أنَّ إمكانية استغلاله في حقل العمل باتت معدومةً كلياً! وعندها تبدأ المرحلة الثانية من نضال الفقير ضد مستغليه: مرحلة استنهاض إخوته وتوعيتهم إلى عدو مصالحهم الحقيقي أي الإقطاع بوجهيه السياسي والديني.

والواقع أنَّ هذه المرحلة ليست جديدةً تماماً على قارىء جبران، فقد حاول يوحنا تحويل طبيعة النضال من نضالٍ فردي إلى نضالٍ جماعي ففشل رغم تضامُن قسمٍ من الشعب معه. فهل يستفيد خليل من «أخطاء» يوحنا، آخذين بعين الاعتبار وضعهما الطبقي المتشابه إلى حدٍ بعيد، ونمط تفكيرهما الواحد (التفكير الإنجيلي)، إلى جانب الوضع السياسي الاقتصادي الواحد الذي ثار فيه كُلٌّ منهما؟ الجواب: سيستفيد دون شك، ولكن ضمن الحدود التي رسمها له جبران لا يتخطّاها حتى لا يتخطى مبدأ جبرانياً أصيلاً كامناً في الجوهر الإنجيلي.

استفاد بالطبع من مقاومة يوحنّا السلبيَّة لمضطهديه ورأى ما آل إليه هذا الأخير. لذا بدلاً من أن يلتزم السكوت، بادر خليل منذ اللحظة الأولى لـ «اعتقاله» إلى الثورة والاستنهاض: «أنا أُشفق عليكم أيها الرجال لأنّكم آلةٌ قويَّة عمياء في يد مُبصرٍ ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم (...) أنتم عبيد الغباوة (...) كنتُ بالأمس مثلكم أيها الرجال وغداً تصيرونَ مثلي». وعلى الرغم من أنَّ هذا الكلام لم يُغيِّر في الواقع العملي شيئاً (إذ اعتُقِلَ خليل رغم هذا)، فإنّه قد دفع بهؤلاء الرجال إلى الشك في مفهوم الشيخ عباس للطاعة والواجب والخير...

وعندما خضع خليل لاستنطاق الشيخ عباس، أجابَهُ، وكان هذا الجواب بدايةً لتغيير واقعٍ برُمَّتِهِ... لنستمع إلى السؤال، فالجواب، فالخطاب:

سأله الشيخ عبّاس: «من هم أهلك وذووك وأين مسقط رأسك». فالتفت خليل نحو الفلّاحين الناظرين إليه بكُرْهٍ واشمئزاز: «الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي. وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي». وبعدها يستطرد لوصف معاناة الفقراء في أسلوبٍ مؤثِّر رائع:

«في أيِّ ساعةٍ من النهار لا تتأوَّه أرواحُكم متوجعة؟ أفي الصباح عندما تُمَزِّق محبَّةُ البقاء نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول؟ أم في الظهيرة عندما تتمنَّوْنَ الجلوسَ في ظلِّ الأشجار لكي تتّقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين إلى أكواخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر؟ أم في الليل عندما تطرحُكم المتاعب على الأسرّة الحجريَّة فتنامون قلقين، ولا يُكَحِّل النُّعاسُ أجفانَكم إلّا وتهبُّون متوهمين صوت الشيخ يرنُّ في آذانكم؟

أيمكن أن نجد وصفاً لمعاناة الفقير أبلغ أثراً في النفوس من هذا الوصف حيث تبرز هذه المعاناة في بُعدها الإنساني الأشمل صراعاً بين غريزة البقاء من جهة، والغرائز الإنسانية الباقية كُلِّها من جهة أُخرى؟!

بعدها يلجأ خليل إلى أسلوب التحريض: «هل مَيَّزَ اللهالشيخ عباس وجعله سيِّداً إذ كان في رَحِمِ أمه؟ أم غضب

عليكم لذنوبٍ مجهولة وبعثكم عبيداً؟ (. . .). الكاهن هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكةً يصطاد بها أموالهم (. . .) هو لصٌّ ينتزع الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم. . . خُذوا كتابَه ومَزِّقوا ثوبَه وانتفوا لحيته وافعلوا به ما شئتم ثم عودوا وضعوا الدينار في كفِّه فيغفر لكم ويبتسم بمحبَّة!».

ويتجمع النَّاس حول خليل وينصرونَه. . . وفجأة «تجري عمليةُ «تمييع» مفاجئة لموقف خليل، ومن وراء الفقراء. كيف لا، وقد حانت ساعة الثأر. كيف سيوفق جبران بين «كفره» الثوري و«مسيحيته» المتسامحة؟

«سنغادرك منفرداً ولا نُدِينك» يقول خليل للشيخ عباس، «ونهملك ولا نشكوك، ونبتعِد عنك طالبين من السماء أن تفعل مشيئتها بك!!!».

ومن ثـمَّ يطالب الفقراء أن يتركوا الشيخ عباس أمام «محكمة ضميره (؟) أمام عرش الله الذي يُشرق شمسَه على الأبرار والأشرار!». وهكذا بعد أن يُنادي خليل «الحريَّة» بأن «تنزل كالصاعقة، وتهدمَ كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفَّحة بذهبِ الجزية. . .»، يترك الفلاحون روح الشيخ عبَّاس «مرتعدة أمام ذنوبه، متعذِّبةً بين أنيابِ هواجسه».

وفي النهاية، سنجد مجتمعاً جديداً كالذي سيدعو إليه جبران في «النبي»: مجتمعاً يعملِ أفراده «بفرحٍ ومحبَّة»: فالشيخ عبَّاس لم يعد هناك ليغتصب الغلَّة بل صار كلُّ فلاَّحٍ في تلك القرية «يستغلُّ بالفَرَح الحقل الذي زرعه بالأتعاب». . . وصارت للأرض مُلكاً لمن يفلحها «بعد أن كانت «مُلكاً لمن لا يزرعها».

الملاحظة الأولى التي سنبديها حول المجموعة تتعلَّق بصورة الفقير، والثانية تتعلَّق بما آل إليه نضاله.

الفقير هنا مصوَّرٌ أولاً كمنتج يحرث الأرض ويفلحها، يجمع السنابل ويغزل الصوف ويشيد الكنائس والقصور، وثانياً كمستغل «يبني القصور والصروح ولا يسكن غير الأكواخ والكهوف، ويرفع بعزم ساعديه أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهة الأغنياء؛ وثالثاً كثائر «مسيحي» يحقق العدالة الاجتماعية بدون إراقة دماء.

أما على صعيد نضاله، فقد توصَّل إلى أهدافه بصورة نجرؤ أن ننعتها باللاواقعية: أولاً لأن التضامن مع خليل جاء شاملاً: فهل تعذَّر وجود فلاَّح واحد فقط خاف سُلطةالشيخ عبَّاس أو ابتغى رضاه؟ أو قُلْ، هل تعذَّر، وجود فلاح واحد فقط يتمسك بتقاليده الموروثة التي طُبع عليها فيردّ على خليل؟ في الواقع تبدو صورة النضال في (يوحنا المجنون) بالرغم من عدم نجاحه أكثر واقعيةً حيث وجدنا الشعب ينقسم حول يوحنا تبعاً للمستوى الفكري الذي وَصَلَهُ كُلُّ فردٍ فيه. . .

وثانياً، ننعَتُها باللاواقعية لأن فلاحاً واحداً من الثائرين على الشيخ عباس لم نَرَهُ يستخدم العنف ضدَّه، بل الكُلُّ آمن بنهج خليل الإنجيلي في التعاطي مع القاتل المستغل. وثالثاً، لأننا نجد حميَّة الشرف والكرامة والإحساس بالمسؤولية تدبُّ فجأة في نفس الشيخ عبَّاس، فيجلس «مرتعداً أمام ذنوبه» بدل أن يحشد «المقاطعجيين» والشيوخ والأمراء لمواجهة حالته المتأزِّمة. ورابعاً، لأن الواقع يشير إلى استحالة تأسيس حكم شعبي ذاتي دائم في وجود السلطان الأكبر، وكأنَّ قريةً واحدة تقدر أن تثور وتنتصر «وتصير جزيرة» من النعيم في محيط الامبراطورية التركية المضطرب[1].

«الأجنحة المتكسرة» (١٩٠٨ ــ ١٩١٢)

وهي القصة الأخيرة في أدب المرحلة الأولى. وتروي قصَّة حب جبران الأوَّل، كما يقول، لسلمى كرامة ابنة فارس كرامة. وفارس كرامة هذا غنيٌّ ولكنَّه ــ بخلاف «القاعدة» الجبرانية ــ حنونٌ وعادلٌ وعلى شيء كبير من الانفتاح إذ يبدو أنَّه يبارك حبَّهما بالرغم من أنَّ جبران «من أبٍ فقير» كما يذكر في القصَّة. فارس كرامة، يقول جبران، هو «الرجل الوحيد في بيروت الذي جعلته الثروةُ فاضلاً!».

لكنَّ الثروة تسبَّب الشقاء لأيِّ كان حتى لو كان على صفات فارس كرامة السامية، ذلك لأنه يجهل «سبل الاحتيال التي تنقذه من مكر الناس وخبثهم»؛ وستضع ثروته الطائلة ابنته سلمى «على شفير هاويةٍ مظلمةٍ مخيفة!» فقد طلب المطران بولس غالب يد سلمى لابن أخيه منصور. وقد وُصف هذا بأنَّه كان «خشناً، وطـمَّاعاً، ومنحطّاً». وما كان لفارس كرامة أن يرفض طلب زعيم ديني. فضاق المجتمع بالعاشقين واتَّسعت الغابة لتَحْضُنَهما في السِّرّ، حتى موت سلمى.

من البيِّن عودة جبران إلى واقع الاستسلام لشرائع الغنيّ الجائر على حِسَابِ عواطِفِ القلب، بِخِلاَفِ ما عرفناه مع وردة الهاني. كما أنَّ المسببين الذاتي والاجتماعي يعودان إلى التداخل: سلمى كرامة وجهٌ آخَرُ لحلا الضاهر؛ منصور غالب يقف في وجه حب جبران كأخي حلا؛ الإقطاع الديني يفتك بالحبّ الرقيق، الخ. .

وعلى الجملة، فـأدب المرحلة الأولى «شديدُ التناغُم» مع وضع جبران الذاتي ووضع جبل لبنان الاقتصادي. فالشخصيات مثلاً لم تكن بعيدةً عن جبران ألبتة، بل هو يرى نفسَهُ في كُلٍّ منها، أو يرى في إحداها وجه أُمِّهِ «كاملة» وهي تحمل «الكشَّة»، وفي الأُخرى وجهَ أخيه بُطرس المريض والمُثْقَل بالديون. . .

(١) خليل حاوي، المصدر السابق ص ١٥١ ــ ١٥٢.

والأمكنةُ تَمَاهت: بيت مرتا البانية يرى فيه جبران بيتهم الحقير في الحي الصيني، ودير اليشاع فيه ملامح دير قزحيا الثريّ.

قبل أن ننتقل إلى أدب المرحلة الثانية فالثالثة، نسأل أنفُسَنا السؤال التالي وهو سؤالٌ ليس مُنبتَّ الصِّلة ببحثنا: بَعْدَ كل هذه النكسات التي تعرَّض لها جبران، ألن يحلم ــ بينه وبين نفسِهِ على الأقل ــ أن يكونَ غنياً؟ لقد أوحى لي هذا السؤال ما قرأته في «هذا الرجل من لبنان» ليونغ، وما رواه (كلود براغدون) صديق جبران الحميم من أنَّ جبران وُلِدَ ولادة سعيدة وأنَّ «قومه لم يكونوا أثرياء ومثقّفين فحسب (؟؟!!) بل كانت عائلة أمه أيضاً أمهر الموسيقيين في الرِّيف كُلِّه منذ زمنٍ بعيد!». أعتقد أنَّنا لسنا أمام محاولة جبران «تعديل ماضيه وزخرفته»[1] فحسب، بل أمام إنسانٍ قد عقَّده الفقر! كيف لا وقد حَرَمَه هذا الفقر من حبِّه الأول حلا الضاهر، ومن حبِّه الثاني جوزيفين بريستون بيبودي[2]. من هنا، قد يجرؤ أحدُنا على القول إن جبران كان يَطمح في سِرِّه أن يكونَ غنياً حتى يحقق بعضاً من أهدافه. فَلَوْ كان غنياً، هل كانَ ليقف عاجزاً أمام المطران غالب؟ وهل كان أخو حلا ليرفضه لو لَمْ يكن «ابنَ مُلتزم ضريبة الماعِز»؟

□ **أدب المرحلة الثانية:**

تنتهي المرحلة الأولى برواية الأجنحة المتكسرة لتبدأ المرحلة الثانية **بالعواصف** (١٩١٨) موعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. ولعلَّ لهذا الأمر معناه ومغزاه: فلبنان آنذاك قاسى الأمرّين نتيجة الاضطهاد والمجاعة والأمراض، ولا بُدَّ أن يترك هذا أثره في نفس جبران. ولذا فإنَّ نبرة الحدَّة تبرز في **العواصف** على نحوٍ لم نجد له مثيلاً من قبل في كتابات جبران؛ صرنا نرى معول الهدم يعمل في أجسام الجميع (باستثناء الشعراء والمفكرين) وفي منازل الجميع: في منازل المثرين «حيث التَّصنُّع والكذب والرياء»، وفي بيوت الفقراء حيثُ «الخوف والجهل والجبانةُ والجهالة». ويصرخ جبران: «إني أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهونَ المجدَ والعظمة!». لم يعد المجتمع إلا حديقة حيوانٍ كبيرة مليئةً بالوحوش الكاسرة، ومن يحاول إصلاحَه سيموت ــ كما يعبر يوسف الفخري ــ مقهوراً... حتى رحمةُ الغني للفقير ــ تلك التي صلَّت من أجل تحقيقها «الأرملة» في (الأرملة وطفلها)، ومرتا البانية في **دمعة وابتسامة** ــ تغدو «نوعاً من حب الذَّات» ويصير انعطاف القوي على الضعيف ــ ذلك الانعطاف الذي شاهدناه في «الأمس واليوم» ــ «شكلاً من التفوّق والافتخار»[1]. هذا ما يقوله يسوع نفسه!

في المجموعة الثانية **المجنون**، سيتحوَّل الموقف الأخلاقي من الشفقةِ والتعاطُف اللذيْن وجدناهما في أدب المرحلة الأولى، إلى موقفٍ أخلاقي قوامه القوة والسخرية... السخريةُ من الجميع على حدٍّ سواء.

وبالإجمال، نُلاحَظ أنَّ أدب المرحلة الثانية (وكذلك الثالثة كما سنرى) قد ابتعَدَ عن الإلمام «بقضيَّة الفقير ونِضالِهِ موضوع بحثنا. وكاتب هذا البحث يعزو هذا الابتعاد إلى جملة أسباب ليس تطوّر فكر جبران وتأثره بمفكرين عظام إلا بعضاً منها. صحيح أنَّ النُّقاد قد اعتادوا تقسيم أدب جبران إلى مراحل ثلاث، لكنَّهم لم يكونوا يعيروا اهتماماً إلَّا لدرجة تطور فكر جبران بما هو (أي التطور) نتيجة التجربة الخارجيَّة والجوانيَّة، ونتيجة تأثره بـ «بلايك» ونيتشه، وابن سينا وابن الفارض، والغزالي، و... والحقُّ أنَّ تطور فكر جبران يعود، فضلاً عن هذه الأسباب، إلى المسبِّبين الذاتي والتاريخي اللذين سبق ذكرهما. أمَّا العامل التاريخي، فهو اشتدادُ غُربَةِ جبران، وبالتالي بعده عن ساحة جبل لبنان حيث كانَ الفلَّاح ما يَزَال يعاني من سطوة الشيوخ والأمراء والإكليروس ويُناضِل ضد هؤلاء جميعهم. وأمَّا العامل الذاتي فيتعلَّق بتطوّر وضع جبران **الاقتصادي** نفسِه.

(*) ففي ١٤ كانون الأول ١٩١٤، يفتتح جبران خليل جبران معرضه الأول في نيويورك (مونتروس غاليريز، الجادة الخامسة) حيث يعرض خمساً وسبعين صورةً بين لوحات ورسوم. وتخبرنا ماري هاسكل أنها جاءت بعد خمسة أيام تتفقَّد نتائج المعرض فتُفاجأ بأن مجموع البيع وصل إلى ٦٤٠٠ دولار!![2] كذلك نعلم أن السيدة ويلسون راغبةٌ في شراء لوحة «الشهوة» بـ ٢٥٠٠ دولار!![3]. ويُعلِّق الدكتور جبر: «حقق المعرض نجاحاً معنوياً ومادياً عزَّز تفاؤل جبران بِغَدِهِ وخلع عن عينيه أحد الحجب السوداء التي كان ينظر من خلالها إلى البشر!».

(**) وفي ٢٩ ك٢ ١٩١٧، بدأ جبران يُعِدُّ العُدَّة لمعرضه الثاني في نيويورك[4]، ولما «فرغ من ورشة المعرض واطمأنَّ إلى نتيجته المعنويَّة والماديَّة، أكبَّ على (المجنون)[5]».

ومن الطبيعي أن يكونَ لهذا التطور الاقتصادي أَثَرٌ في توجّه

---

(١) خليل حاوي في جبران، إطاره الحضاري وشخصيته، وآثاره، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٢، ص ٧٢.
(٢) راجع ما كُتب في هذا الصدد في كتاب جميل جبر، ص ٥٧.

---

(١) «مساء العيد»، **المجموعة العربية**، ص ٤٢٢.
(٢) كتاب الدكتور جبر، ص ١٦٣.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦٢.
(٤) المصدر السابق، ص ١٧٦.
(٥) المصدر السابق، ص ١٧٩.

جبران «الروحاني». فإن انفِتاح جبران على أدبِ النزعات الصوفيَّة ما كانَ ليحصل إلا على أرضيَّة ماديَّة جديدة تتمثل في بداية تكوّن وضع اقتصادي شبه مستقرّ يتيح لجبران التوغل في ذات نفسه.

وبالروحية نفسها، يمكننا أن نُقَيِّم موضوع بحثنا في «أدب المرحلة الثالثة». ففي **النَّبيّ** تتجلى فكرة وحدة الوجود والمصالحة مع الكون كفكرة تعلو فوق كُلّ ما سواها من الأفكار «الهَدَّامة» السابقة. لم تَعُد النقمة ضد الغنيّ المستغلّ تستأثِرُ بتفكير جبران، كذلك ذَوَتْ صورة الفقير الضعيف المحتاج إلى نصير. . . صارت المحبَّة بين الغني والفقير طريق المجتمع المثالي الرَّغيد. وفي هذا المجال، من الطريف أن نَعلم أنَّ الفصل الأول من كتاب **النَّبيّ** الذي كُتب سنة ١٩١٨ قد تَمَّ في مزرعة آل غارلند في باي اند. كان جبران هناك على حَدِّ تعبيره «ضيفاً ملوكِيّاً، في بَيْتٍ ملوكي، في مكانٍ ملوكي. . . هُنا أستطيع أن أعملَ وأركَبَ الخيلَ وأقودَ سيارة! . . .»[1].

(١) المصدر السابق، ص ١٨٠.

□ □ □

المراجع

(١) المجموعة لكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران العربية.

(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران المعرّبة ــ دار صادر ودار بيروت ١٩٦٤ ــ بيروت.

(٣) جميل جبر: جبران في حياته العاصفة ــ مؤسسة نوفل ١٩٨١ ــ بيروت.

(٤) خليل حاوي: جبران خليل جبران، إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره ــ دار العلم للملايين ١٩٨٢.

(٥) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان.

(٦) يوسف الحويك: ذكرياتي مع جبران (١٩٠٩ ــ ١٩١٠ باريس) حرّرتها ادفيك شيبوب ــ دار الأحد / بيروت.

(٧) لحد خاطر: عهد المتصرّفين في لبنان ــ الجامعة اللبنانية ــ بيروت ١٩٦٧م.

(٨) سيميليا نسكايا: حركات الفلاحين في لبنان ــ دار الفارابي ١٩٧٢.

(٩) الدكتور علي شامي: تطوّر الطبقة العاملة في الرأسمالية اللبنانية المعاصرة، دار الفارابي ــ ١٩٨١.

(١٠) أحمد طربين: لبنان منذ عهد المتصرّفية إلى بداية الانتداب.

(١١) فوزي عطوي: جبران خليل جبران (عبقري من لبنان) الشركة اللبنانية للكتاب ــ بيروت.

(١٢) روز غريّب: جبران في آثاره الكتابية ــ بيت الحكمة / بيروت.

(١٣) وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ــ ١٩٢٠ (معهد الانماء العربي) ــ بيروت ١٩٧٦.

(١٤) عبدالعزيز سليمان نوّار: وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (١٥١٧ ــ ١٩٢٠) ــ جامعة بيروت العربية ــ ١٩٧٤.

(١٥) بربارة يونغ: هذا الرجل من لبنان (جبران خليل جبران) ترجمة سعيد بابا.